برهان علويّة – اللقاء المتواصل

هادي زكّاك
IESAV-USJ

ملخص | مع رحيل برهان علويّة، تخسر السينما اللبنانيّة أحد أبرز مخرجيها وآبائها الروحيين.
كلمات مفتاحية | برهان علويّة – السينما اللبنانيّة الجديدة – السينما البديلة – كفرقاسم – بيروت اللقاء.

في صباح يوم ٩ أيلول ٢٠٢١، اتّصل بي الصديق نجا الأشقر الذي كان يبكي فقدان والده في الليلة الماضية ليخبرني أن برهان علويّة قد غادرنا بدوره. وكأنّ الآباء يرحلون ويتركوننا أيتاماً في بلد لا يوجد فيه أب جامع يهتمّ بمواطنيه ويمنعهم من التحوّل إلى أموات أحياء كما في أفلام الرعب التي وقّعها جورج روميرو.

تليق ببرهان علويّة صفة الأب وتحديداً الأب الروحي لما نقدر أن نسمّيه السينما اللبنانيّة الجديدة، التي ظهرت في السبعينيّات وجاءت مواكبة للسينما البديلة التي تحاكي واقعها وتخرج من دهاليز الترفيه السطحي والتقليد. كان برهان رائداً في هذا المجال مع جيل ضمّ مارون بغدادي وجوسلين صعب وهيني سرور ورندة الشهال وجان شمعون وغيرهم.

عرف علويّة كيف يتناول الواقع الفلسطيني وكيف يُظهر مفاعيل الاحتلال الاسرائيلي وانعكاساه على المجتمع الفلسطيني وتكوينه فجاء "كفرقاسم" (١٩٧٤) كأحد أوّل وأبرز الأفلام السينمائيّة العربيّة التي أخرجت القضيّة الفلسطينيّة من بازار البروباغندا والخطابات الخشبيّة.

لم يكن "كفرقاسم" الفيلم الأوّل الذي يتحدّث عن الاحتلال الاسرائيلي ومجازره ولكن أهميّته تكمن في كيفيّة معالجة الموضوع.

مقابل سطوة الخطاب القوميّ والوطنيّ في قرية "كفرقاسم"، يعيدنا برهان علويّة إلى الأرض لنسمع صرخة الإنسان الفلسطينيّ العاديّ الذي أضاع أفراد عائلته منذ النكبة سنة ١٩٤٨ فانتشروا في الأردن وسوريا ولبنان. هناك مأساة المقيمين ومأساة الشتات فكلّ عائلة تمزّقت حتّى أنّ البعض لجأ إلى تغييرٍ اسمه مثل عبدالله الذي يعمل في أحد المقاهي في تلّ أبيب وأصبح معروفاً باسم إيلي منعاً لإثارة حساسيّة الزبائن اليهود.

إنّها عمليّة إلغاء شاملة لا تنتهي مع سرقة الأرض وشرذمة المجتمع بل تجعل المواطن الأصليّ يظهرعلى شكل تذكار يُباع للسوّاح وكأنّه لعبة تسمح لمقتنيها أن يتسلّى بشنق العربيّ.

يتابع فيلم علويّة استكشاف الحياة اليوميّة في كفر قاسم معتمداً على إيقاع فيلم وثائقيّ وكأنّ الكاميرا موجودة مع السكّان الأصليّين سنة ١٩٥٦. تلعب بلدة "الشيخ سعد" في سوريا وهي قريبة من مدينة طرطوس دور قرية "كفرقاسم" في الفيلم. فمع احتلال أرض فلسطين، يُعاد تكوين الأراضي المسلوبة على أراضٍ عربيّة أخرى سينمائيًّا. يتمّ اختيار مساحة قد تكون شبيهة بكفر قاسم ومن اللافت أنّ الكاميرا تصوّر الأراضي أيضاً من الجوّ وكأنّها بالفعل تسترجع المساحة المسلوبة. أمّا مدينة تلّ أبيب فيبدو إعادة تكوين أحد شوارعها أقرب من فترة إنتاج الفيلم أي السبعينيّات من حيث اختيار الملابس والنظّارات. في جميع الأحوال، نحن في مدينة غربيّة غريبة.

بينما يقترب الإسرائيليّون من مهاجمة مصر[٢] وفرض حظر التجوّل على القرى العربيّة، نرى وقع الاحتلال على جميع تفاصيل الحياة اليوميّة وعلى العلاقة بين الأفراد بانتظار صدور أمر القتل الجماعيّ.

١- "كفرقاسم" من إنتاج المؤسسة العامّة للسينما في سوريا.

٢- ضمن ما عُرف بالعدوان الثلاثي على مصر من قبل بريطانيا وفرنسا وإسرائيل بعدما قام الرئيس جمال عبدالناصر بتأميم قناة السويس في العام

فيما تطال السلسلة الإجراميّة المجموعة تلوى الأخرى، يقدّم لنا الفيلم المسؤولين العسكريّين عن المجزرة الذين ستحاكمهم إسرائيل بالتوبيخ أو بالسجن قبل أن يعودوا بعد فترة قصيرة إلى عملهم.

لسنا هنا أمام رسم كاريكاتوريّ للعسكريّ الإسرائيليّ كما كان يحدث في أفلام الحركة التي أنتجت في نهاية الستّينيّات بل أمام تجسيد لأسماء حقيقيّة.

كما يحرص الفيلم على عدم الاكتفاء بذكر عدد القتلى بل يلجأ إلى ذكر الأسماء وأعمارهم بعيداً عن الإطار الإخباريّ حيث يتحوّل عدد الضحايا إلى مجرّد عمليّة حسابيّة.

إذاً ينتهي الفيلم برسالة مقاومة تندرج ضمن السينما الملتزمة التي تتعدّد أشكالها في السبعينيّات. لكن لا شكّ أنّ "كفرقاسم" أكثر الأفلام إتقاناً من حيث تفكيك الحدث وإبراز مفاعيل الاحتلال من دون اللجوء إلى الأساليب الميلودراميّة والخطابة الواعظة التي ستُستعمل غالباً لمواكبة العذاب والمجازر.

الأهمّ أنّ "كفرقاسم" يثبت أنّ الفيلم الروائيّ بإمكانه أن يكون وثيقة تُنافس بفعاليّة الفيلم الوثائقيّ ويقدّم رجالاً ونساءً على قيد الحياة ليسوا مجرّد أرقام أو صور بل شعب يستحقّ الحياة الكريمة.

هذا التفاعل بين الوثائقي والروائي يطبع أفلام برهان علويّة التي ستهتمّ بمواضيع عربيّة شاملة من الموضوع الفلسطيني إلى هندسة بيوت الفقراء غير القادرين على شراء الإسمنت في مصر. فيأتي اللقاء بالمهندس المصري حسن فتحي، الذي بنى أوّل قرية من الطين اسمها "غورنا" في الأقصر في الفيلم الوثائقي "لا يكفي أن يكون الله مع الفقراء" (١٩٧٨).

تتجلّى العودة إلى بيروت مع "بيروت اللقاء" (١٩٨١) ليفتتح علويّة مع هذا الفيلم المحوري مراسلات مستمرّة مع المدينة ستمتدّ لسنوات وتغطّي زمن الحرب ("رسالة من زمن الحرب" (١٩٨٤)) والمنفى ("رسالة من زمن المنفى" (١٩٨٧)) وأخيراً العودة مع "إليك أينما تكون" (٢٠٠١).

هكذا يبدو فيلم "بيروت اللقاء" (١٩٨١) وكأنّه أسّس بدوره مشروعاً سينمائيًّا متكاملاً حول المدينة.

كان من أوّل الأفلام الروائيّة التي صُوّرت خلال الحرب الأهليّة اللبنانيّة وركّز على العلاقة بين زميلين في الجامعة حيدر وزينة وهما يحاولان اللقاء في مدينة مقسّمة إلى شطرين غربي وشرقي خلال هدنة سنة ١٩٧٧ مع الانتهاء من ما سُمّي بحرب السنتين (١٩٧٥-١٩٧٦). هل يتوصّل ابن الجنوب الذي تهجّر من قريته أن يلتقي بصديقته المسيحيّة، ابنة الأشرفيّة؟

ينجح الفيلم أن يتجرّد من المفرقعات الحربيّة ليُظهر صعوبات الحياة اليوميّة (تجميع القمامة، مشاكل التموين، صعوبة العبور، زحمة السير، الفقر) وليدخل بعمق في شخصيّتيّ الفيلم وصعوبة التواصل.

يطبع الشعور بالغربة الشخصيّتين فزينة على خلاف مستمرّ مع شقيقها المليشياوي اليميني والذي يمثّل ما كان يسمّى حينها بالفكر الانعزالي بينما يبدو حيدر وكأنّه أخذ مسافته من الأحزاب والحركات الوطنيّة التي أضاعت البوصلة.

تختار زينة الهجرة بينما يدرك حيدر أنّ زمن اللقاء بات صعباً فزمن الحرب هو الذي سينتصر في النهاية كما يأتي التأكيد مع الفيلم اللاحق.

يوثّق الفيلم بشكل لافت معالم المدينة ووسطها المدمّر والفارغ والذي كان في الماضي القريب مكاناً للقاء والتواصل.

كما يرسّخ أيضاً مفهوم سينما المؤلّف مرتكزاً على مقاربة واقعيّة ضمن إنتاج مشترك يشمل لبنان وبلجيكا وتونس.

لن يتأخّر مصير برهان علويّة أن يكون شبيهاً بمصير زينة فيحمله من جديد إلى فرنسا وبلجيكا (حيث درس السينما) ليصوّر شخصيّات في المنفى تَضاعف بُعدها عن الوطن فيما ضجيج الحرب لا ينقطع ويعبّر عنه شخصيًّا المخرج-الشاعر.

تصل التسعينيّات التي يتبلور معها واقع جديد في منطقة الشرق الأوسط فيتمّ "إنهاء" الحرب اللبنانيّة، وتوُضع محادثات السلام على السكّة بين العرب والإسرائيليين بعد حرب الخليج التي يتطرّق إليها علويّة من خلال فيلم "وفي ليلة ظلماء" (١٩٩٢).

لم يكن الواقع يشبه أحلام هذا الجيل من المخرجين الذين شهدوا على الثورة الطلابيّة في فرنسا في العام ١٩٦٨ وعلى الحركات اليساريّة في العالم والتطلّع لإنشاء دولة علمانيّة حديثة في لبنان وتحرير فلسطين من الاستعمار وكذلك تحرير الإنسان العربي من التقاليد البالية ومن الأنظمة الاستبداديّة.

بدا الفشل وكأنّه سمة المرحلة ولكنّ علويّة لم يستسلم.

طوال هذه المسيرة الطويلة، لم يكتفِ برهان بالأفلام فقط بل حاول، منذ عودته في منتصف التسعينيّات إلى بيروت، أن يخلق صَندوق الدعم للانتاج السينمائي الذي عمل عليه بعض الزملاء الآخرين.

كنت في مطلع العشرينيّات، أتابع هذه الاجتماعات وأشهد على اندفاعه وما لبثَت أن توطّدت علاقتنا خاصةً بعدما أصبح برهان أستاذي في معهد السينما في جامعة القدّيس يوسف-بيروت والمشرف والداعم لفيلمي القصير "ألف ليلة ويا ليالي" (١٩٩٩) الذي حرص أن أصوّره على شريط سينمائيّ بإنتاج من الجامعة وأذهب إلى بلجيكا لأتمّم عمليّات الفيلم النهائيّة في المختبر الذي شهد على البعض من أفلامه.

بعد العرض الأوّل للفيلم، قال لي: "حان الوقت الآن أن تقرّر إن كنت تريد أن تصبح مخرجاً أم ناقداً". أجبته أنني أريد قبل كل شيء أن أكون مخرجاً وأن أحافظ على نقدي بدءاً بأفلامي. فالجلسة مع برهان علويّة كانت دائماً جلسة تُطرب الفكر من حيث تحليله للواقع وطرحه

الأسئلة الجوهريّة. وكأنّ السينما تعود أوّلاً إلى هذه الجذور قبل أن تلتهي بالتقنيّات وعرض العضلات.

فيما كان موضوع "ألف ليلة ويا ليالي" القضيّة الفلسطينيّة في إطار عالم وشخصيّات ألف ليلة وليلة، تابعت مسيرتي مع برهان وقرّرت أن أصوّر اللقاء مع بيروت وأصوّره في "بيروت... وجهات نظر" (٢٠٠٠) فشعرت بغصّته أمام مدينة لم يعد يعرفها وتضاعف إحساسه تجاهها على أنّها مجرّد سجن.

وجاء "إليك أينما تكون" (٢٠٠١) ليتكلّم عن اختفاءٍ ساحة الشهداء وليختتم رسائل برهان مع بيروت في إطار الفيلم الوثائقي بانتظار الختام أيضاً مع الفيلم الروائي.

عندما صوّرته في "سينما الحرب في لبنان" (٢٠٠٣)، تساءل إن كان يجدي أن تُعرّض حياة ممثّلين للخطر لتصوّر شخصيّات روائيّة في زمن الحرب. مع فيلمه الأخير "خلص" (٢٠٠٦)، ظهرت النهاية حتميّة.

حاول علويّة أن يختتم مشواره السينمائيّ وعلاقته ببيروت مع "خلص" (٢٠٠٦) وكأنّه كان يعلن عن نهاية زمن الأحلام وعن هزيمة قضت على فرص الحب واللقاء. وبقيت بعض القطط في المدينة لتناول العشاء فيما اصطدم البشر بالأفق المسدود.

كان يقول لي لا تنسى أن تخبر طلّابك عن أفلامي ولم أتوقّف منذ أكثر من عشرين سنة أن أنقل تجربة هذا الجيل الرائد. رحل برهان ليلتقي بمارون وجان وجوسلين ورندة. وكأنّ رحيل هذا الجيل المؤسّس يواكب رحيل وطن.

قام نجا الأشقر مع "نادي لكلّ الناس" بالحفاظ على إرث برهان علويّة والعديد من روّاد هذه السينما التي ألهمتنا.

ونحن اليوم نختبر من جديد ما قاله، فيصعب علينا اللقاء في بيروت فيما المنفى ينادينا.

كم نرغب أن نصرخ معك يا برهان ونقول: "خلص!" فيحطّم صراخنا زجاج قصور الطغاة ويتدفّق إلى دهاليزها!